استراتيجية مقترحة لمواجهة الجدار على المستوى الشعبي

سعيد يقين

تستند هذه الورقة بصفة خاصة ليس على وصايا نظرية وإنما على تجربة شعبية أثبتت قدرتها على مواجهة فعلية مع جيش الاحتلال وقيادته السياسية في شمال غربي القدس . إذ أن هذه التجربة استطاعت ان تكشف بجلاء عن المخزون الوطني الشعبي المقاوم الذي فاجأ المؤسسات الاحتلالية المختلفة . فالتجربة الشعبية التي استمرت على مدار أكثر من عام وسقط خلالها خمسة شهداء ومئات الجرحى جعلت رئيس محكمة العدل العليا الاسرائيلية يصرح أمام المحكمة ولأول مرة موجها ادانة تاريخية لمؤسسة الاحتلال قائلا لممثل الجيش في المحكمة : " أن هذا الجدار يعني حشر السكان في حظائر هي أشبه بحظائر الحيوانات " , متخذا هذا القاضي ولأول مرة قرارا بوقف العمل في بناء الجدار على مقطع طوله (40) كلم تقريبا يمتد بتعريجاته من غرب قرية بيت سيرا مرورا بمحاذاة قرية بيت لقيا متجها شرقا نحو بيت عنان وبدو وبيت سوريك وبيت اكسا . وعند هذه النقطة يتحول الجدار باتجاه بيت اجزا وبيت دقو ليلتقي عند مستوطنة بيت حورون على طريق رقم 443 .

لن تمر هذه الجرافات ألا على أجسادنا :

تشكل قرى شمال غربي القدس وحدة جغرافية وديموغرافية واحدة وهي تتشكل من قرى : بين عنان , قطنة , بيت سوريك , بدو , بيت دقو , القبيبة , بيت اجزا , بين اكسا , والنبي صموئيل مع امتدادها الشمالي نحو الجيب ، بيرنبالا ، الجديرة، رافات ، وهي بالأساس منطقة زراعية تشكل الزراعة فيها عصب الحياة الاقتصادية وهذا بالتأكيد كان أحد أهم عوامل تفعيل الفلاحين نحو مقاومة الجدار .

التمهيد لحالة النهوض الشعبي لمقاومة الجدار العنصري:

"في البدء كانت الكلمة"،

أخذ سكان المنطقة يستشعرون الخطر الداهم لجرافات الاحتلال في نفس الوقت الذي أخذت فيه القوى الوطنية تستشعر ذات الخطر ولذلك جرى التحضير لاجتماعات القوى الوطنية لتدارس استراتيجيات التصدي لزحف الجدار نحو المنطقة , وجرى تنفيذ العديد من الاجتماعات الجماهيرية في بيت عنان وبدو وبيت سوريك وبيت دقو لشرح الاثار الكارثية الخطيرة على مستقبل وجود المواطنين فوق اراضيهم . وعرضت خلال هذه اللقاءات أفلام وثائقية تصور الكارثة التي حلت بالمناطق المنكوبة في شمال الضفة الغربية وتحديدا في محافظتي طولكرم وقلقيلية . وجرى استضافة الدكتور عزمي بشارة مرتين على الأقل في المنطقة لتقديم تحليل سياسي حول الاثار المتوقعة على الحياة بعد الجدار. في ذات السياق بدأت القوى الوطنية بتعبئة سياسية من خلال البيانات والاجتماعات الجماهيرية التي وضعت المواطنين أمام مسؤولياتهم بعد أن أصبح لديهم تصورا دقيقا عن الأخطار الكارثية للجدار. لذا فإن الافتراض الأساسي هنا الذي مكن المواطنين من التصدي البطولي لجرافات الاحتلال كان قد استند أولا وقبل كل شيء إلى نسق معرفي دقيق حول الجدار .

وفي ذروة هذه اللقاءات التحريضية التي جرت في مجلس محلي بيت سوريك استطعنا أن نطرح الشعار الحقيقي لانتفاضة مقاومة الجدار : " لن يمر الجدار إلا على صدورنا " ، وكتب هذا الشعار على معظم جدران المباني في كل القرى تقريبا .

تجربة بدرس :

تزامنت هذه التعبئة الوطنية لجماهير القرى مع النهوض الشعبي الراقي في مقاومة الجدار في قرية بدرس إلى الغرب من رام الله التي أبدى فيها السكان مقاومة شرسة لجيش وجرافات الاحتلال رغم أن عدد

السكان في القرية لا يتجاوز ألف نسمة وربما للمرة الأولى خلال بناء الجدار يتمكن السكان المحليون وبشكل رائع وغير مسبوق بطرد الجرافات عن أراضي القرية مقدمين نموذجا رائعا في مقاومة بطولية شعبية متمردة على أرتال من الجيش والحراس والاليات المعقدة مما أعاق بشكل فعلي العمل في الجدار في هذه المنطقة باعتراف جنرالات الجيش الاسرائيلي .

الجدار ليس قدرا والمقاومة ممكنة جدا :

في هذه المرحلة جرى طرح شعار : الجدار ليس قدرا ، وأن مقاومته ليست مستحيلة . ففي فضاء تجربة بدرس أصبح بالامكان تحريض الناس على المقاومة خاصة عندما شاهدوا عبر شاشات التلفاز مشهدا شعبيا باسلا في بدرس تمكن فيه الأهالي من الوقوف في وجه الجرافات غير آبهين بما تصبه آلة القمع الصهيونية عليهم من قمع صهيوني يتسم بالفظاعة . إذ كان لهذه الوقفة الشجاعة تأثيرا ولو بسيطا في إزاحة الجدار عن جزء كبير من أراضي القرية التي كانت قد ابتليت أصلا في العام 1949 عندما جرى ترسيم خط الهدنة الذي أدى إلى جعل معظم أراضي القرية الغربية لتصبح واقعة في ما اصطلح عليه المنطقة الحرام .

ذروة المقاومة : سقوط الشهداء :

كانت أول محاولة للمؤسسة الاحتلالية في ترسيم خط الجدار في قرية بيت سوريك . لاحظ الأهالي سيارات عسكرية مع مهندسين قد شرعوا في وضع علامات على الأرض لترجمة الخرائط الجوية فعليا برسم خط سير الجدار في المنطقة الغربية في بيت سوريك فيما يعرف بمنطقة الخلة أو المدرسة القديمة التي كانت قوات الاحتلال الاسرائيلي قد دمرتها في العام 1948 . وبشكل عفوي توجه الناس رجالا ونساء ، كبارا وصغارا لطرد هذه الفرقة الغازية وفعلا هربت هذه القوة غربا باتجاه مستوطنة الردار وأزال الناس الاشارات التي وضعها مهندسي الجدار في هذه المنطقة .

النجاح يدفع لنجاح آخر :

كان لهذا النجاح الأول في الصدام مع الاحتلال أثرا بالغا في توجه الأهالي نحو المقاومة المنظمة . في هذه المرحلة بدأت تتبلور اللجنة الشعبية لمقاومة الجدار . والتي على الأثر باشرت في التحضير لمظاهرة واسعة بمشاركة أهالي القرى عامة في قرية بيت سوريك .

اتسمت هذه التظاهرة بمشاركة جماهيرية واسعة أكثر مما كان متوقع وبدأ الانفتاح على الإعلام يأخذ اتجاهات إيجابية . فالمنطقة أخذت تشكل حالة نهوض استقطبت الاعلام الذي أخذ يسلط الأضواء على الأخطار التي تواجه السكان .

" محاربة الاشاعات " :

تعمل كثير من الأوساط الاستخبارية الاسرائيلية دائما على قتل الروح الريادية المقاومة عند الناس وذلك بنشر الاشاعات والحرب النفسية بهدف شل قدرات المواطنين على الحركة بتثبيط العزائم وكان أخطر القضايا التي استوجبت الوقوف أمامها وتعريتها :

1- الجدار سوف يقام شاء الناس أم أبوا.
2- الجدار خطة مرسومة جرى الاتفاق عليها مع السلطة الفلسطينية .
3- لا يمكن للمظاهرات أن تعيق بناء الجدار .
4- هناك آلاف الدونمات جرى بيعها من زمان و اليهود إنما يقومون بضم أراضيهم المشتراة.

هذه الاشاعات المدمرة كان يمكن لها أن تحبط المد الشعبي فعلا ، إلا أن هذه الحرب النفسية قد تم الانتصار فيها بالعديد من الوسائل التي لا يتسع المجال لذكرها الآن . ولكن خلاصتها : أنه كان على اللجان الشعبية أن تفند للمواطنين عدم صوابية هذه الاشاعات ومحاربة مروجيها باثبات العكس .

ذروة المواجهة مع الاحتلال 2004/2/24 :

اتسم العمل الشعبي المقاوم للجدار بحجم المشاركة الواسعة من كافة سكان القرى . إذ كانت الفكرة الأساسية التي عملت عليها اللجان الشعبية لمقاومة الجدار ترتكز إلى الحقيقة التالية :
إن نزول آليات الاحتلال لشق الجدار في أي ركن في المنطقة يجب أن يواجه من كافة سكان المنطقة وليس من أهالي القرية التي يجري العمل فيها . لقد أدت هذه الفكرة إلى اتساع دائرة المشاركين في الفعاليات الشعبية وقد تجلى ذلك بصورة واضحة عند نزول الآليات العسكرية في بيت سوريك وبدو في مطلع شهر كانون ثاني 2004 . إذ توجه السكان من القرى الأخرى للوقوف أمام الجرافات بشكل واسع ومن كلا الجنسين ومن مختلف الأعمار . ففي المواجهة الأولى في بيت سوريك / بدو استطاع الحشد الشعبي أن يجبر الآليات العسكرية على مغادرة المكان وهذا ما عزز الثقة في نفوس المواطنين وشكل منطلقا فعليا للاستمرار في المواجهة الشعبية وتوسيع نطاقها .

الاحتلال يصعد سياسته العقابية :

شهد شهر شباط 2004 سلسلة فعاليات جماهيرية واسعة كشفت بجلاء عن عمق المخزون الشعبي المقاوم . وأخذت دائرة المشاركة تتسع بشكل ملحوظ . وفي يوم 2004/2/23 تنادى الأهالي عبر مكبرات الصوت وبتنسيق مباشر من اللجنة الشعبية لمقاومة الجدار إلى التوجه صباحا إلى منطقة السهل في بدو لمواجهة الجرافات . وكانت قوات الاحتلال قد حشدت قواتها منذ ساعات الصباح الباكر إلا أن المواطنون المتظاهرون كانوا قد سبقوا قوات الاحتلال إلى الأرض واعتصموا فيها , مما اضطر قوات الاحتلال لحشد قوات وآليات عسكرية بشكل غير مسبوق لطرد الناس من الأرض . وهنا حدثت المواجهة الكبرى مع جيش الاحتلال التي سقط فيها الشهيد زكريا محمود عيد ومحمد ريان والعشرات من الجرحى الذين أصيبوا بعيارات نارية . وقد استخدمت قوات الاحتلال في هجمتها على المواطنين القوات الخاصة (المستعربين) وفرق الخيالة لمطاردة الناس في الأراضي الجبلية الوعرة بقيادة وزير الشرطة وقائد المنطقة الوسطى الذين أشرفوا مباشرة على عمليات قمع المواطنين من خلف السياج في مستوطنة (جيفعون هحدشاه) القريبة من بدو حسب ما أعلنته الإذاعة والتلفزيون الاسرائيلي في حينه ، وتوالى سقوط الشهداء الذين شكلوا الكوكبة الوطنية الأولى في معركة اسقاط جدار الفصل العنصري فسقط الشهيد محمد بدوان وضياء أبو عيد وعبد الرحمن أبو عيد في أعظم مواجهة شعبية على أرض قرية بدو التي شكلت بؤرة لتمركز قرى شمال غربي القدس فيها .

الخلاصة :

" حتمية أن يتحول الجدار العنصري إلى لعنة أبدية على أصحابه " ؟

هناك مقولة خطيرة تقول : " أن الجدار قد انتهى واكتمل وبالتالي لا فائدة ترجى من العمل الشعبي . وهنا يجب أن يثبت شعبنا وقواه الحية أن الجدار ليس قدرا حتميا وأن مقاومته مسألة حتمية تفترض توسيع دائرة العاملين على افشاله كمشروع سياسي /عنصري اقتلاعي للشعب الفلسطيني . ثم وأنا اعتقد أن هذا المشروع بتكوينه العنصري يشكل أعظم مادة يمكن أن تشكل حالة اجتماع وطني يتمركز حولها الاجماع والفعل الشعبي للوصول به سقوط تاريخي أسوة بباقي المشاريع العنصرية الاستيطانية في العالم .

وهنا إني أدعو إلى ما يلي :

أولا: توسيع دوائر اللجان الشعبية والخروج بها من حدود الدائرة الفصائلية إلى فضاء المشاركة المجتمعية بحيث تستوعب هذه اللجان كل القطاعات الشعبية : (فلاحين ، طلاب ، عمال ، مرأة،.....) .

ثانيا: تدريب وتأهيل اللجان الشعبية بحيث يمكنها هذا التأهيل والتدريب من استيعاب كل الطاقات المجتمعية لدمجها في الفعل المقاوم.

ثالثا: الاستمرار في العمل الشعبي خلف وبمحاذاة الجدار بشكل دائم وليس موسميا وتغير أنماط المواجهة الشعبية بين حين وآخر لأجل دمج كل الطاقات والقدرات المقاومة والخلاص من المشاهد النمطية التي تبعث على الملل.

رابعا: جعل اللجان الشعبية دائما مفتوحة وعدم حصر عضويتها . لأن حصر العضوية في العمل الشعبي يؤدي نتائج كارثية على روح المقاومة الشعبية .

خامسا: على النخب السياسية أن لا تتعامل مع قضية الجدار العنصري من زاوية المشاركة الاعلامية الرمزية الاعتبارية وإنما يجب أن تكون دائما في صدارة العمل الشعبي بشكل دائم وليس بشكل موسمي.

سادسا: التوعية الدائمة العقلانية لكل شرائح المجتمع لخلق موقف وخطاب شعبي من شأنه أن يوسع دائرة المشاركة الشعبية ويدفع بها دائما للحركة الابداعية المقاومة.

سابعا: في هذه المعركة يعتبر الاعلام المحلي أحد أهم اركان دعم المقاومة ، فالاعلام الذي يحمل فلسفة واضحة من شأنه تشجيع وتحفيز العمل الشعبي .

ثامنا: دعم وتمويل الريف الفلسطيني بشكل يضمن حفز الناس على المقاومة وليس التكيف مع نتائج وآثار الجدار.

تاسعا: تشكيل هيئة خاصة بمساعدة ضحايا المقاومة الشعبية وخاصة المعتقلين والجرحى بحيث تتولى هذه الهيئة تقديم المساعدة اللازمة في الوقت اللازم وعدم ترك هؤلاء المبادرين دون عناية تليق بهم لأن عدم الاكتراث بالمصابين والمعتقلين المشاركين في العمل الشعبي من شأنه أن يضعف توجه الآخرين نحو المشاركة.